المحاضرة الرابعة

السنة الأولى فلسفة الشرق المحاضرة الرابعة الدكتورة بشرى عباس

مصر، قيم الحياة (٤)

في الفصلين السابقين يكاد يكون هناك لدى معظم الباحثين إجماع على أن المصري القديم كان يرى كونه في شكل مستقر من محيطه وبتجربته، وأن الدولة جعلت في عهده الفرعون لكي يضبط أمرها ويرعاها كما يرعى الراعي أغنامه.

ونحن هنا نحاول البحث عن القيم التي كان المصري يقرنها بالحياة.

فإذا كانت الفرضية التي انطلقنا منها في بحثنا، وهي أن المصري كان ينظر إلى الإنسان بوصفه جزء أساسي من كونه متحد بالجوهر، وبذلك فهو يطبق المألوف البشري على اللابشري، وهنا نأتي إلى المشكلة الأساسية في الفكر التأملي، وهي لماذا وجدت الحياة؟

هنا من الصعوبة إيجاد تعميم واحد ينطبق على آلاف السنين فكل تعمم يكاد أن يكون غير مقبول لدى مختلف العلماء.

السؤال ماذا كانت أغراض الحياة؟ من أجل الحصول على أجوبة ممكنة يجب علينا النظر إلى مكانين متشابهين ضريح لوزير مصري، كبير موظفي البلد ووكيل الملك الأول عند الهرم وبالمقابل ندخل ضريح أحد وزراء المملكة القديمة وهو رجل عاش (2400) حيث نرى عرف محشوة بمشاهد تدل على حياة شديدة النشاط وشهوة في المزيد من الحياة، أنها تظهر الوزير وهو يضرب السمك بالرمح.

بينما تجد خادمه يصطاد حصان بحر هائج، ونرى الوزير يشرف على ربط المواشي وذبحها، حراسة المزارع وحصادها إنه يشرف على أعمال النجارين، إنه يشرف على بناء القوارب لجنازته إنه يرأس معاقبة المقصرين في دفع الضرائب، وهناك يرقب الأطفال في ألعابهم وهو أيضا عندما يستمع إلى عزف زوجته يوحي إلينا بطاقة عظيمة ويتحفز للحركة والعمل.

فصورة هذا الضريح هي قصة حياة نشطة بعيدة عن الروحانية إنها الحياة الطبيعية التي أراد هذا الوزير بقائها، والتي يتمنى أن يستمر بها في الخلود.

أما الصورة التي ترسمها صورة ضريح رجل عاش حوالي 600ق.م فمن المعروف أن الألف الثمانمائة سنة بالسكينة والتقوى فنحن هنا لا نرى فيلا يتدفق حياة، ولا حصان بحر هائج ولا أطفالاً يقفزون أن الجدران مكسوة بنصوص مراسيمية وسحرية، ناك صور للوزير مصطنعة الوقفة جامدة في وضع كهنوتي أمام إله الموت. كما أن هناك بعض الصور الصغيرة توضح الكتابات بمشاهد من العالم السفلي فالحياة فيعالم هذا الوزير تكاد تنعدم. ولا يهمه إلا الجنائزوعالم الموتى فهو يركز أثره الخالد على العالم الآخر عوضاً عن هذه الحياة.

وهكذا نجد أن التوكيد في الضريح الأول يتركز على الحياة والحركة والعمل ودنيا المادة، بينما نرى في الضريح الثاني التركيز على الموت والراحة والدين. وهكذا نجد أن الإنسان المصري القديم قد عاش فترتين زمنيتين، الفترة المبكرة شديدة التفاؤل والانطلاق والفترة الثانية شديدة الأمل والخضوع.

Scanned by CamScanner

المحاضرة الرابعة

المملكة القديمة والمملكة الوسطى

يرمز لظهور مصر فجاءة في التاريخ بالظهور المفاجئ لهندسة حجرية رائعة الفن بقول الباحث (برستد):
يوسعك أن تقف في متحف القاهر أمام ضريح ضخم من الغرانيت كان يحوي يوما جند(خوفو) ولعل المعماريين بالحجر واللذين يفقهون فن البناء الحجري كانوا أقلاء عندما خرج خوفو يتمشى لأول مرة في هضبة الجيزة الجرداء، وعين مواقع أسس الأكبر. فتصوروا إذن جرأة الرجل وعزيمته عندما قال لمساميه : اجعلوا كل جانب من جوانب القاعدة المربعة 755 قدما لقد علم أنه سيحتاج إلى قرابة مليوني ونصف المليون من حجارة تزن كل منها طنين ونصف الطن لمكسو هذا المربع الذي يتسع لثلاثة عشر فدانا و481قدما في الهواء لهذا فإن الهرم الأكبر يعد وثيقة من وثائق تاريخ الذهب البشري فهو يبين سطوة الإنسان في قهره القوى المادية. لقد حقق مهندسو الفرعون لنفسهم ولملكهم فن الخلود بسيطرته الخالصة على القوى المادية.

في هذه الصورة إيضاح لموجة النشاط الفجائية العارمة والشهوة الملحة في العمل والانجاز و اتصفت بها المملكة القديمة في مصر. وفي هذه الفترة تحقق العديد من أروع الإنجازات الذهنية كفلسفة (اللاهوت المغيمي) كما نجد النظرة العلمية التي نجدها في النصوص الطبية المدونة على لفائف البردي، ونحن لا نرى في ذلك سبباً وجيهاً لافتراض ان هذه الأعمال العظيمة المنجزة إنما جاء بها إلى البلاد غزاة فهناك ما يحدو إلى الاعتقاد بأن هذه الفورة من القوة والنشاط كانت محلية. غير أن أسباب انبثاق القوة الفجائي هذا ليست بالواضحة ويمكن القول أن استقرار الدولة والمجتمع هو الذي يسير البداية للسلالات المصرية طالب الأفراد بمطالب جديدة وقد أصبحت نظيمهم أشد فاعلية بتعيين وظائفهم. فجعل أحدهم مهندسا والاخر حافر أختام والثالث كاتب سجلات.

وهذه الوظائف لم تكن تخصص أما في هذه المرحلة فقدكان لها من الخطورة. وكان النجاح المادي في نظرهم أول أهداف الحياة الصالحة.

هذا ويشار إلى أن لفظة (الله) في هذا الزمن المبكر تستعمل بصيغة المفرد وإشارة إلى نظامه أو تمنياته للإنسان. ولا ريب في أنه أحياناً الملك. وأحيانا الخالق أو الإله الأعلى. الذي وضع القواعد العريضة العامة للعية الحياة. ولكن يبدو أحياناً أن هناك توحيداً وتشخيصاً للسلوك الصالح ممثلا في إرادة الإله.

إن تباعد قبور النبلاء. ولا مركزيتها في عصر الأهرام يشيران إلى استقلال المصري حينئذ واعتماده على نفسه ففي أول الأمر كان ذوو المناصب العليا يدفنون إلى مقربة من الملك (الإله) اللذين قضوا حياتهم في خدمته فهم يعتقدون بخلوده ويأملون في البقاء الدائم بفضله. ولكنهم ما لبثوا أن أحسوا بالثقة في أنفسهم بحيث جعلوا يتباعدون عن الملك وينشدون خلودهم في الأقاليم التي يقنون فيها.

إن تسمية هذه الروح بالفردية خير من تسميتها بالديموقراطية لأنها تتعلق بصورة رئيسية بقاعدة للسلوك الفرد لا للحكم السياسي فالإحساس بالكفاءة الشخصية قد يؤدي إلى اللامركزية في الحكم فيولد إحساساً محدوداً بالطموح الديموقراطي غير أننا لا نرى في مصر القديمة تلك الديموقراطية السياسية. وهذا يسمح لنا بالقول أن المصري في هذه الفترة كان يميل إلى المرح وبعشق اللذة فقد كانوا يتمتعون بالحياة حتى أقصى حدود وهذا السبب الذي جعلهم ينكرون الموت، فهم قد نقلوا إلى العالم الآخر حياة المرح والنشاط. فقد جاء في كتاب عن آداب السلوك التي على

Scanned by CamScanner

المحاضرة الرابعة

الموظف أن يتحلى بها. قول الكلام الجميل لتعليم الجاهل المعرفة وقواعد القول الحسن. فصورة الكتاب المثالية شاب حريص على التأديب الشديد يتجنب بفطنته نزوات السلوك. كما يحتوي هذا الكتاب أصولا يسترشد بها المرء في معاملاته مع المتفوقين عليه والمساوين له والأدنى منه. فإذا اضطر إلى منافسة متكلم يفوقه حجة ومنطقا نصحه الكتاب بأن يقلل من الكلام الرديء بعدم مقاومته.

وإذا ما قابل المرء مساوياً له. عليه أن يظهر تفوقه عليه بصمت. أما إذا قابل من هو أدنى منه فعليه أن يبدي له تسامحاً وعدم اكتراث وبهذا تكون قد انزلت به قصاص العظماء.

هذا ويشار إلى أن مملكة مصر القديمة انهارت في فوضى عارمة وانجرفت القيم في تيار من العنف والاغتصاب. وقد عزا المصريون بعض ويلاتهم إلى التفسخ في خلقهم ولكن أيضاً عزوها إلى وجود آسيويين. إلا أنه من المشكوك فيه أن الآسيويين قدموا بجحافل عازمة قهرت مصر بل الأرجح أن سبب الانهيار كان من الداخل فقد أتاح لفئات صغيرة من الآسيويين الدخول والاستيطان.

ولعل هذا الانهيار كان بسبب اشتداد اللامركزية. فقد جعل بعض الحكام من غير الفراعنة يشعرون بقدرتهم الفردية على الاستقلال فأقاموا حكومات متنافسة إلى أن تصدعت مصر إلى فئات متعادية تقتتل فيما بينها وكان ذلك جزءً من الاتحاد الفردي ولدينا تعابير كثيرة عن حيرة المصري إذ رأى عالمه القديم ينقلب رأسا على عقب. الأثرياء والأقوياء بالأمس أضحوا اليوم جياعا يلبثون الخرق. وفقراء الأمس أضحوا أصحاب الأملاك وذوي السلطة والخدم لا يحترمون أسيادهم. لقد تصدعت فجأة استمرارية الحياة البادية في العناية بالأخزفة فنهب القبور بما فيها أهرام الفراعنة. تقطعت أوصال الولايات الإقليمية واقتمح الأجانب أرض مصر. وانهارت السلطة الزراعية المركزية فامتنع الناس عن الحراثة حتى عند فيضان النيل وتلاشت التجارة المربحة لقد اندثرت القيم القديمة. وأثر البعض الانتحار. وهناك كتابات تقول أن تماسيح النهر اتخمت بالرجال اللذين القوا بأنفسهم طائعين في أفواهها. ومن أروع القطع الأدبية المصرية وثيقة تسجل حواراً بين رجل يريد الانتحار وبين روحه المسماة (با) فاقترح قتل نفسه بالنار. ومن أغراض هذه الفترة أن الروح التي كان عليها أن تبدي موقفا ثابتا موجها من الموت هي تضطرب وتتردد في الحوار وتعجز عن إيجاد جواب شاف لكآبة الرجل.

لقد كان الجواب الأوحد أن هذه الدنيا بلغت من السوء ما يجعل الآخرة خلاصاً للإنسان في هذه الوثيقة فلسفة تشاؤمية فالرجل يدلي بالحجة للروح في أربع قصائد الأولى أن اسمه (سيكوث) إذا اتبع نصيحة الروح بالاستسلام للملذات فهو مازال يتمسك بمقاييسه ولن يسمح لسمعته بالتروي.

تنزل الأجيال جيلاً بعد جيل منذ أزمان أسلافنا. واللذين أقاموا المباني. تلاشت أماكنهم ما الذي جرى لهم.

وما من أحد يعود من هناك ليخبرنا عما لهما. ليخبرنا عن مشاعرهما ليطمئن قلوبنا إلى ان نذهب نحن أيضا إلى المكان الذي قد ذهبنا إليه.

وبما أن تلك الحكمة التي علا شأنها في العصر الأسبق لم تضمن للحكماء بقاء تراه العين في قبور مصونة.

امرحوا ولا ترهقوا النفس. هل للإنسان أن يأخذ شيئا مما اقتناه معه. وهل عاد إلينا واحد من الراحلين.

وهكذا كان رداً الفعل الأولان لانهزام الحياة الناجمة اليأس والتشكيك.

ولكن كانت ثمة ردود فعل أخرى فقد احتفظت مصر بحيوية ذهنية وروحية أبت ان تنكر كرامة الإنسان الفرد.

Scanned by CamScanner

المحاضرة الرابعة

فقد بقي الفرد شيئاً قيماً لنفسه. وظل يستهدف الحياة الخالدة قبل كل شيء.

والتغيران الكبيران اللذان نراهما هما التقليل من شأن المكانة والتقنيات المادية بصفتها فضيلة الحياة. وزيادة التوكيد على العمل الاجتماعي اللائق هو الفضيلة مع استمرار الاتجاه الفردي الذي رأيناه في المملكة القديمة إلى حد أضحت عنده خبرات الحياة ميسرة إمكانياً للجميع. إذا كانت خبرات الحياة في منال كل إنسان يبحث عنها، غنياً كان أم فقيراً فليس الثراء والسلطان إذن منتهى السعي. فالناس جميعا خلقوا متساويين بالفرص فهذه الكلمات يعبر الإله الأعلى عن أغراض الخليقة

سأذكر لكم الأفعال الأربعة التي فعلها قلبي من أجلي لكي يفحم الشر

لقد فعلت أفعالاً أربعة داخل مصاريع الأفق

لقد صنعت الرياح الأربع لكي يتنفس منها كل إنسان كزميله

إبان حياته وذلك أول الأفعال

لقد صنعت مياه الفيضان العظيمة لكي يكون للفقير حق بها كالعظيم وذلك ثاني الأفعال

لقد صنعت كل إنسان مثل غيره من الأناس ولم أمر بأن لهم أن يفعلوا الشر غير أن قلوبهم انتهكت حرمة ما قلت وذلك ثالث الأفعال.

لقد صنعت قلوبهم بحيث تكف عن نسيان الغرب لكي تقدم القرابين المقدسة لآلهة الأقاليم وذاك رابع الأفعال.

إن العبارتين الأوليين في هذا النص تقولان أن الهواء والماء متاحان بالتساوي للناس والتشديد على تساوي حقوق الناس في المياه في بلد يعتمد رخاء الإنسان فيه على نواله حصة عادلة من مياه الفيضان وتكون السيطرة على المياه فيه عاملاً قويا في تحكم الواحد بالآخر. معناه تكافؤ أساسي بالفرص. وعبارة صنعت كل إنسان مثل غيره من الأناس أي خلق الناس جميعا متساوين يرفقها تأكيد الإله على أنه لم يبغ لهم فعل الشر بل أن قلوبهم هي التي أثرت الرزيلة

وكان الفعل الصالح الأخير الذي فعله الإله الأكبر هو لفت انتباه البشر إلى الغرب حيث الحياة الخالدة وحثهم على خدمة الآلهة المحلية بالتقوى والفضيلة.

انتهت المحاضرة

Scanned by CamScanner